د. شاهيناز شرف الدين

مجموعة قصصية

سور البكائين

إلى ذاتك نئن بصخب أرواحنا..

ثم نلقي الأغيار مغلفين بإيماء وصمت.

اسم الكتاب: **سور البكائين**
تأليف: **د. شاهيناز شرف الدين**
الإخراج الداخلي: د. شيماء محمد أبوطالب
تدقيق لغوي: هدية علي
تصميم الغلاف: محمد علي
الطبعة الأولى: 2023
رقم الإيداع: 2023/ 4185
الترقيم الدولي:4- 20 - 978-977-8957

دار القاهرة اليوم

مزاج الكتب
نشر والتوزيع

ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339

"أنا لم آتِ لأعطيك شيئًا جديدًا..
لقد أتيت لأُخرج جمالًا لم تعرف أنه موجودٌ فيك."

جلال الدين الرومي.

إهداء

أُهدي إليك ثمرة تخبّط سنواتي الغابرة بين وجلٍ وتِيه. أُقدمها لك على طبق من نور لتقرأ ما كنته قبل أن تُهدّئ من روع قلبي.

إليك يا من أخذت بيدي إلى الباب الذي قابلت عنده نفسي فسلكتُ بها مسلكًا إلى قدس الأنس الأسمى.

ويدك التي لم تترك يدي على أول الطريق وأخذت بهمّتها تشد من عزمي كي لا أستسلم لزيغ تشتتي، ولملمت أشلائي المبعثرة على أبوابٍ ظننتُ أنها شفاء صدري فأغلقتُ بحكمة في وجهي في مُقتبل أيامي.

وما زلت كلما تعثَّرت وجدتُ خيطًا من طرف عباءتك يأخذني بعيدًا عن خوفي وعن عثرات الطريق القائم في جوفي.

إلى معلمي وشيخي وقدوتي وطبيبي بعد الله _تعالى_ حفظه الله تعالى، وأضاء بنور بركته العالم أجمع ورضي عنه وعن من والاه، وأحبّ من أحبّه، وأنار ما بين يديه بنور محبته ومدارج طاعته وحلاوة مناجاته وقرار رضاه.

مقدمة

ربما تسري كل خاطرة في هذا الكتاب كقبسٍ من نور داخل كل روح شاهدت الحق في مرآة تجليه فحلّقت مع أسراب المهاجرين إلى قيعان ذواتهم واطلعت على سر الأبدية الأعظم، وذاقت معنى السكون، وأرست زوارق خوفها شطان المآل، ثم نمت أجساد تسجن تلك الأرواح ونبتت من عالم الذر في عالم المادة والأسباب فوجدت نفسها أسيرة الأشياء، وجرّعت كؤوس الوحدة بعد أُنس القرب وأنفاس الحريه وعلمت أن سجن الجسد هو سر الشقاء ولكن لا حيلة لها بامتطاء جياد السفر سوى الحلم؛ فقررت أن تبقى سجينة جسدها وترى الكون عندما تُغمض عينيها رافعة رايات التمرد على كل ما هو مادي، فلا تفتح عينيك..

قد كنت فيما مضي تسرق الحلم، ثم تسير مشتتًا بين البين وأعمدة النور التي تُضئ فراغك، والآن شردت آخر أوهام حلمك العابر قبل أن تملأه بترهاتك الواهية فهنيئًا لك بمفترق طرق الوحشة، واستنشاقك كل يوم غبار غربة أزلية ورأس مليء بأنقاض وأطلال. فلتُخرج كل ما حوت جعبة أيامك من توالي دقَّات ساعات الملل ولترمي بها جانبًا، وافرش لما جهلت من أيام زهرًا؛ عساها تأتي إليك محملة بالندى.

فكل ما هو قصي صغير جدًا، وكل ما هو دانٍ كبير جدًا؛ لنبتعد قدر المستطاع عن طلاسم حيرتنا التي سكنت عقول تدبير لم نُكلّف به وأخاطت بنا متاهات تُحيط أرواحنا منذ سكنتنا فكبّلت أسفارها وخرّبت معالمها..

لتعلم جيدًا يا من تبحث عن وطن لروحك أنها لم تُخلق لتؤسر بهذا الجسد البالي. هي دائمة التخبّط داخلك دون أن تدري؛ يُفسّر ذلك ضيقك المفاجئ ولهاث أنفاسك حين تشعر بغربة داخليّة تُخفيها عمن حولك، وكذلك ارتباطك الكامن بالسماء

وكأنك تطمئن كل حين على عائلتك التي تنتظرك هناك بعد أن تقضي مدة منفاك بهذا الكوكب. _هذا إن كنت ممن يحنّون دومًا إلى السماء_.

لا ضَير أن يحتفظ كل منا بلثام يُخفي معالمه الحقيقة عمّن حوله ممن لا يتشبّعون بنفس لون روحه. سوف تحتفظ بأعلى درجة من تركيز لونك طالما كان مغطى ومحفوظ عن العيون التي صارت كل همها أن تبعث بسهامها القاتلة إلى كل ما لا يُشبهها فترديه قتيل اختلافه؛ فتنفذ رويدًا أساطير الزمان الجليّة بفعل مؤامرة جهل سريع الانتشار ككل ما هو خاطئ.

لا بُد وأن كل منّا لاحظ أننا نعيش وقتًا لا ينتشر سريعًا مثل النار في الهشيم إلا كل ما هو خاطئ وضال.. فإن كنت ممن لا يموتون من أجل الحق؛ فكن على الأقل ممن يحيا الحق في ذواتهم ويرتحلون إليه بروحهم متى شاؤوا.

في جنُح الليل

- هل علمتِ لماذا تصولين البوادي بغير سرج ولا لجام؟

= أفضل أسر البقاء في حزني على أن افزع إلى هول فرح زائف؛ فشعائري في قلبي دفينة المُصلّى، وكل خراب داخلي إنما يُلبّي صراخ امتلائي بحروف مبعثرة.. تهمهم بتمائم أُمليها فجرًا على المئذنة.

فتميل على أذني: "ثم ذهب إلى أهله يتمطّى. أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى"

- يكاد جوابي يتحشرج بكاءً: ليسوا بأهل ولا أولى ولا "فأولى"

هذي يا مئذنتي فتنة السقيا. فتنة الماء الغدق.

فكل ما وجدتُ فوق يابستكم إنما هو ماء للغرق.

= يا ابنتي اصطناع نسيان الواقع لا يُجدي فحتام الهروب من مصيدة القدر.

- لا تزرعي بودياني حطبًا فإن أسفلها مواقد فكري تشتعل فلن أترك موضعًا أجد فيه السكينة والأمان لأجل أن أصير شريدة الطرقات والأزقة.. فأنتِ تعلمين أن غاية سؤل الأنثى هو رشفة أمان على مقاهي السكينة والامتنان لحاضر تُحبّه وقادم لا تهابه فكيف سأنتقل من مبيت الأمان إلى مبيت الوحشة إلا لو كان هذا ما تراه أعينكم فقط وأن الأماكن هذه مبعثرة حقيقتها.

إن الطرقات العابرة لهي وطن لمن أحاطته جدران بيته بالغربة وإن الأزقة لهي حضن لمن لفظه أهله من أذرع حبهم.. قد أظن أحيانًا أن الله تعالى حين قال: "وحنانًا من لدُنّا" إنما بعث لي حنانه في ممالك تضم رياض آل بيت نبيه _صلى الله عليه وسلم_ وإلا فلا وطن لي.

= صدقًا تتحدثين ولكن حديث الناس لن يتوقف عنكِ بالسوء فألسنتهم أكثر أذى من السم القاتل.

_ فلأدعهم وما ينطقون فحديثهم لن يقتل من ماتت ألف موتة قبل أن تستطيع نطق جملة غابت كثيرًا عنها بملء شفتيها: الآن أحيا!

فرقٌ كبير جدًا بين أن تحيا مدفوعًا من قِبَل رياح عاتية لا طاقة لك بها، وبين أن تقف بوجه الرياح وتقول ها أنا ذا. فهي حتى لو قتلك ألف مرة لن تحيا حقًا إلا حينما تقف وسط هوجها كالجبال الراسية، لا ينطق عنك أحد بدلًا منك، ولا يتوقّع أحدٌ ما ستنطقه ولا يرسمون لك طريقًا بديهيًا قد سلكه العالم أجمع من قبلك. لكن هذه سنوات أهداها لك الله ناظرًا إليك ما أنت صانع بهديته.. فإذا سِرت كذرَّة تراب وسط سيلٍ عارم لا تؤمن بوجهته، إذن فما قيمة قدميك التي طوَّعها الله لإرادتك؟

أمّا إذا أرسيت دعائم اليقين في قلبك سيُغيّر السَيل مساره خشية أن تصدمه صلابتك. فصم أذنك عن كل ما تكره خشية أن يُهدر في الأسى دم قلبك، وإن نسيت إغلاق أذنك عنهم فلتضع حاجزًا يحول بين الأذن والقلب ولتمضي قدمًا ظافرًا بمعيّة اليقين الأعظم والحنان الإلهي، ولتدع كل من أحرقته نار اعتراضه _على بصمة العشق الإلهي في قلبك_ محترقًا بما كسبت يداه؛ فلن تطالك نيران تخطّيتها على بساطٍ من نور ولن يحرقك هشيم لم تمر بطريقٍ يقود إليه.

"محضتني النصح لكن لستُ أسمعه. إن المُحب عن العزال في صمم".

- بردة البوصيري.

متاهات السِوَى

ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ربما لا تدري حقًّا أي طريق سلكت، وإن كنت تتذكّر فحتمًا ستتخطى أهم التفاصيل التي وضعَت نقاطًا وهميّة حدّدت مسيرتك.

** بعد فترة من وصول روحك إلى حالة روحانية من السكينة سوف تجد نفسك عاجزًا عن تذكّر معالم الطريق الذي أتيت منه إلى هذا البراح العجيب الذي صرت تسكنه، سوف تنسى ذلك الدرب الصعب الذي دُست أشواكه للوصول إلى حيث لم تقصد مطلقًا، ولكنك لن تنسى الصُدف الإلهية التي أودعت قلبك جداول ماء الفرج؛ فغيَّر مسار طريقك الطويل إلى حيث تتمنى.

سوف تؤمن كثيرًا بحديث هؤلاء الذين يحاولون أن يُقنعوك بأنك لا بُد وأن تمتلك هدفًا دنيويًا تسعى وراءه وتعكف على تحقيقه

وتلاحق أي إشارة أمل تلوّحِ لك من جهته؛ مخفين وراءهم وجه الحقيقة المطليَّة بالخنوع والضعف لكنها في صميم معناها كل الحق، وهي أن النجاح الحقيقي الذي قد يطاله الإنسان هو ألا يبرح حدائق تلقائيته، وألا يكتسب لونًا صناعيًا ليلقى ترحابًا من أشخاص يود أن يؤنسوا طريقه.

فكل السعادة أن ترمي بأحجار نردك في يد تدابير حضرة القدس وإن تصنع من أسئلتك خطابات مُرسلة إلى ذي الحِجر؛ ولو صوّرت لك وقتًا دقاتك الفانية أنه تأخر عليك في إرسال الجواب؛ فاعلم أنها ليست سوى حكمة إلهية معهودة عند أرباب القلوب البصيرة.

يُحكى أن عبدًا كان يدعو الله وقتًا طويلًا ثم توقّف عن الدعاء؛ فبعث الله له الخضر -عليه السلام- فسأله الخضر: إن الله قد أرسلني إليك لأسألك عن سبب توقّفك عن الدعاء، فقال له الرجل إني دعوت الله كثيرًا ولم أتلقَّ الإجابة، وأخشى أن يكون الله قد أغلق أبوابه في وجهي..

فقال الخضر -عليه السلام-: إن الله أرسلني إليك لأخبرك أن مسألتك هذه كانت لتقربك منا، وأن وراء كل كلمة اللهم الكثير الكثير من لبيك عبدي، لبيك عبدي.

إذن فالثمرة الأساسية من تأخر الإجابة هو أن دعاءك الكثير وتضرّعك إلى الله يُحبه الله ويُقرّبك به إليه، وهل تُقاس مسألتك بشيء أمام القرب الإلهي؟!

فحكمته تعالى معلومة أما مرادها فعنده، وتأكّد بأن لكل سؤال إجابته سواء بادرك بها أم احتفظ بها عنده لخير لك.

فدُر في الدنيا إن أردت ستصطدم يومًا بجدار حقيقتها الذي يحوي الوهم.. والبس ما شئت من حليها، لست ترتدي سوى حلل الأشجان. لن يبقى من متاعها ولذتها إلا ما تذوقت روحك من جميل قرب، أو حلاوة مناجاة، أو سجدة في السَحَر.

دوائر خانقة

هذه طينتي تهوى تأبين الأشياء الفانية قبيل رحيلها؛ فيعزف قلبي على أهوال فزعه ونقَمه على كل ما هو متوارٍ خلف حجب لم يطوِها الزمان بعد؛ رغم أنه مدرك أن كل شيء منسي فور مروره عبر بوابة الدنيا هادئًا كان مروره أم صاخبًا.

قلت للفؤاد مهدئة من روعه: وماذا يقدر على تسكين النفس سوى الحب، وما أصدق من حب تسلّى بالنظر إلى جمال محبوبه؟

فنسوة المدينة قطّعن أيديهن غير شاعرين بأية آلام عندما تسلّت أعينهن برؤية جمال أذهل القلوب؛ فأودى بالحواس على ركاب ريح غير مستقر، فاجعل محبوبك نصب عينيك وانصب له محرابًا داخلك؛ تُسكِر بخمر جماله حواسك عن الشعور بوعثاء السفر.

بين الجموع النائمة

يعلو طيفك ابتسامة

أعرفها.

تتوه لذتها رويدًا

ريثما تُنادي الأطيافُ أضوائي

وارتعاشة أطلالك

وفجائع الموت المُنسدل

بين أغلالٍ وقضبان

من صُنع نفسها

الموت حارسي

وهاجسي

الجميل القريب

لعلك تراني دومًا بقبضته

تبتلعني أزهاره البنفسجية

كي أرسم على المُهج حاراته

فكيف أُصافحك

والمدينة كلها أنت!

والشوارع تتهدل من جداول مائك

ترقُب الضوضاء المتقوقعة

في دُرر وجهك المبتهج

في محضرك..

عقلي غارق في العدم

وباللا شيء يهذي

ويتمعّن

في تلاشي الأضداد

"الأرواح التي فيها شيء من روحك تعرف كيف تُخاطبك بلا كلمات".

جلال **الدين الرومي**.

رحيل إلى قدس الذات

قال لي يومًا: انثري بذور الحب من وراء هودجك المسافر إلى نهاية الدنيا، ولا تخشي نهايات الأشياء أبدًا؛ فكل متاع زائل لا محالة.

تأكّدي بأنكِ ستحصدين أزهار ابتسامات رسمها الحب الذي نبت في يوم التلاق.

قلتُ له: لا تنتظر مني جوابًا؛ فأنا الفارة إلى السرمدي دومًا في دهاليز مخيلتي.

ثم لحقتُ بالمخيّلة الشاسعة لأرى إلى أين تسعى، واصطحبته معي؛ أدركتُ أنني أحتاج إلى دوام نوره الذاتي ليرقع ثوب فنائي، حينها غُصت في لُججٍ من خوفٍ نفسي وأنشدتُ غضبًا متأججًا لمَّا وجدتُ جميع الناس قد أدركوا مآرب النسيان.

ثم تابعنا أسفارنا وقابلنا في غياهب درب يقود إلى فوهة يذوب فيها العمى وتنجلي بصائر الذوات: ذلك الشريد الماثل أمام بحيرة من تيه القصي يقذف حجرًا تلو الآخر؛ لاهي الذهن في لوحة تعج بالجمال، لم يفطن أي منا إلى أنه غارق في غربة من انقطاع عن ينبوع النفس؛ فآل عجزه إلى ذلك المشهد القروي الذي يخضب عين المحب بلون الغروب المؤلم. ألمًا يزيد من انغماسه في حِمم العشق غير مبالٍ بتصاعد الوجع؛ بل ويزيد في إفناء نفسه الغائبة في كُنه محبوبها حتى يصيران كلمة واحدة. (أنت أنا) بل (أنا أنا) فصار يُناديه يا أنا فهو في مَحضره على الدوام لا يبرح حظيرة قدسه ويستحي خجلًا ممن يُنادونه (يا هو)! فأنت في جوفي يا أنا بل أنت في كُلّي يا ذات ذاتي.

بل لا أنا إلا أنت يا أنا.

فلما قرأتُ جمال المشهد الباطني سلّمته طرف الخيط وألقيتُ إليه رجاء السلام؛ فصدق علينا ظننا فاتبعناه إلى الأثر، وتجلَّت على الرمال ما غرست أقدامنا نحو الحقيقة فسارت معنا مرآة الحق التي تعتلي عوالمنا متخفّية لكننا عرفناها من روح أناقتها التي تُجمّل كل شيء حولنا وتقي أعيننا الوجه المظلم للأشياء. فلمَّا عرفناها أجرينا اتصالًا باطنيًا بيننا لوحنا فيه لذواتنا بالإنكار حتى لا تفطن إلى علمنا أمارتنا فتفسد علينا ارتحالنا من الزوال إلى معرفة البقاء؛ أظن أننا رقمنا ما اطّلعنا عليه ودوَّنا ما لاحظنا من إشارات- حتى لو لم نصب الفهم- معتقدين أننا متيمنون بالكتاب المرقوم حتى لا يشهدنا إلا المقربين في عالم التآلف الروحي.

سرنا وما زلنا في محضر طيف حزين يقبع في منتصف دائرة بعيدة تنتشي خوفًا وألمًا حين تُصادف حقيقتها، هي تدري جيدًا أنها تحيا متخفّية بين أضلعها دون أن تعرف من هي حقًا؛ فوضعت بين

يديها كل ما ظننته دواء؛ فزاد ردها على توجّسي من الدنيا وزاد احتمائي في كل ما هو من (هو)، وزاد بظلمة الريبة تأرقي وتحسسي..

فلم تمسس يدي بعشي الظلام سوى بابه الأوحد الذي سمعت فيه جوابه "واصطنعتك لنفسي"..

وهكذا كنتُ كلما صادفتُ برك الأدران في الجوى امتطيتُ جوادًا من سوء حدثي لأقتات ما حوَت؛ ليس من فضاء جوف وإنما من هِرَم روحٍ قد سكنت جسدًا حديث عهد بالدنيا في ظاهر القول ومقتبّل المُحيّا. لم أحزن قط على هِرَم روحي قدر حزني على جهلي ببطانٍ يضم حوايا سري. أنا حقًا غريبة عن سري.. تراه مدركًا حقًا لمآل هذي الدانية! فتلبسه خوف شهرته كوخزة تئن في قلبي ترى تجلّي النور وما زالت جاهلة بروح باطنها وتمر بلا اكتراث على الإشارات التي يريد بها إثارة انتباه الماضين في ركاب تكبرهم ليثنيهم عمّ في صدورهم.

ظلّت نفسي تحوم حولي في فراغٍ من عدمٍ وضيقٍ من صَخب وبحث بخفايا روحي عن كُنه السبب حتى نبّهتني دقات قلبي اطرقي بابه الأوحد "واصطنعتك لنفسي" فأخذني الحق إلى جذوري.

إلى زوال..

وهكذا عرفتُ كُنه نفسي.

"يا داوود.. اعرفني واعرف نفسك. ففكّر -عليه السلام- ساعة فقال: "إلهي عرفتك

بالفردانية والقدرة والبقاء، وعرفتُ نفسي بالضعف والعجز والفناء" فقال له تعالى: "الآن عرفتني حق المعرفة".

انطواء

كانت فيما مضى تستطيع السفر إلى قاع روحها فتجدها كبئرٍ عميق جدًا. وكانت كلما زاد توغلها فيه تلاشت ظلماته وسطعت أنوار في قاعه. وكانت كلما جال برأسها خاطرة وقامت بدفنها قبلًا في هذا البئر أنبتت تلك الخاطرة ورودًا من نورٍ في عقلها وأنارت ظلام قلبها.

جالت برأسها خاطرة كانت قد أودعتها ذلك البئر منذ عقدٍ من الزمان تقريبًا عندما كانت عائلتها يرونها لا تفقه من الحياة شيء، فمالت برأسها قليلًا ودفنت رجليها العاريتين بين حبات الرمال الدافئة وهي تستمع إلى سيمفونية أمواج البحر المتلاطمة؛ فأخذت تُدندن معها أناشيد خوفها الدفين ثم رفعت عينيها الدامعتين للغيوم الجارية فوقها لتزيد صدرها رمادية فوق رمادية طقوسه

الحزينة وغبار حزنه المتلاصق.. التي جعلت منها شيئًا منفرًا لا يُحب الناس قربه فقُل ما يحب الناس أن يجاوروا أشخاصًا يحملون الكثير من الهموم في قلوبهم. ولكن ما زاد توجّسها إلا حينما خطت قدميها ذلك المجتمع الجامعي.

تتسارع يداها دومًا في خط مخاوفها على أوراقها مع تلاحق دقات قلبها وذلك كلما تذكّرت اقتراب موعد محاضراتها في مبنى الجامعة، فهي تعلم أنها مصابة برهاب مجتمعي لم تُظهره لأحدٍ إطلاقًا حتى لا يفطن أحد إلى مواضع ضعفها..

لهذا ما زالت رافضة أن تذعن لمخالطة زملائها ممن لا يأبهون لشيءٍ إطلاقًا سوى إطلاق النِكات التي تُخفي تنمرًا على كل من يمر أمامهم..

قطع استرسال الخوف الذي تصبّه نسمات الموج في قلبها سرب من الطيور البيضاء المهاجرة كحال قلبها الذي هو في سفرٍ

دائم بين ذكرى دفينة وحديث صامت محاولًا أن يلهو بالنبض بعيدًا عن خوفه. فأخذت تشي لصديقاتها من الطيور بكل ما حملته صعداؤها فهي مؤنسها الوحيد في هذه الجامعة التي تمقتها ولا تعرفها سوى بصوت الضجيج الذي يصدر منها وفحيح النهار المُشمس الذي يفوح من رائحة الالتزام الوقتي بتلك الدروس التي تُشعرها بشجنٍ روحي شديد.

كل ما في هذه البناية فرض موقوت يضيق به صدرها؛ إلا ذلك الشاطيء الذي لا يبعد عن الجامعة سوى بضع دقائق ورغم ذلك لم يكلّف أحد الطلاب قدميه بالذهاب إلى ذلك البراح الهادئ. براح من الماء والرمال وارتخاء ذبذبات الروح مفرطة التعب.

فقالت في نفسها أنه من البديهي أن من اعتاد جل حياته أن يبقى وسط محيط من الأصدقاء، وأن يُهدر وقته في الاستهزاء بغيرهم ويشعرونهم بخجلٍ مما لا دخل لهم به في أنفسهم طبيعي ألا

يأنسوا إلا أمام المارّة الذين يتغذون على التهامهم أحياء. وأن تتقلّب أنفسهم في ملذات النفس الجائعة إلى المزيد من اللهو؛ فلو توقفوا عن إطعامها الغيبة يومًا؛ لأكلت نفسها. نفوسٌ كتلك لن يؤنسها حديث هادئ مع موج البحر، ولن تشعر بدفء الرمال في أحضان أشعة الشمس ولن يُشعرها بالحرية ملاحقة طيور البرية أو رقصة بكل عنفوان القلب في فضاء البيداء؛ فلن ألومهم وسأكتفي بابتسامة تحمل الكثير من الحذر.

لا زالت غريبة وسط جموع السكارى بآراء البشر. الذين وقعوا ضحايا في غيبوبة الكمال المُدّعَى.

لكن النفس إذا ظلت بعقر دار نقائها وقبضت على كنز فطرتها ستسعي من تلقاء نفسها طلبًا للاتصال بذي الكمال، وتسعى لإطعام جوعها الروحي حتى لو افتقرت للكمال الحسي.

برزخ الانتظار

وقعتُ في حب كل شيء يدل على المحبوب؛ ثم نسيتُ سبب حبي لكل شيء.. فتكالبت عليَّ الأشياء تستنكرني أوقعني ذلك الحب في بُغضٍ يُكنّه لي كل شيء. أو هكذا تُملي عليّ وحدتي التي اخترتها ولم أخَلْها يومًا ستختارني!

ثم تلبّستني وساوس الوحدة إلى أن صدقت كل ما أوحت إليّ دون أن أتقصى عن مدى صدقها، فصرتُ أعشق أن أُغلق بابًا عليَّ لعامٍ أو لعامين بعيدًا عن بني البشر شرط أن أصطحب أوراقي ومشروبي؛ ولستُ أدري أهربٌ من ازدراء أم خيط إلى نجاة!

قلتُ تأتي الآن لترَى ما خطّت العزلة على وجهي يا دقائق العمر؛ فإن حالي صادمة جدًا. قد أوصدت نظراتهم المتعجبة عليّ أبوابًا وراء أبواب.. وأسقطوا بسماتي إلى شر هاوية وكثر ما أثقلت

كلماتهم قلبي حتى أستقرّ في خنوع جفني وإيثاري لهذه الحياة وراء الجدران الصامتة.

فلن أسامح جرائمهم إزائي أبد الدهر يا بُعد نوري.. يا خلد عمري، لن أمسح دماءهم بصفحي، لن أحنو على صراخهم يومًا بعفوي.

لن ألتفت إذا استغاثوا المدى: أن رُدّي.

لا. لن أُجيب حناجر نادت في العالمين تُلطّخ بالسم اسمي. كنت أخطو بالخوف وسط جموعهم؛ فطال الأسى مني الحشا ولم يكترث لاعتزالي طرقاتهم ولم تشفع لشفائي منهم شموع رجائي ولا أنهار دمعي...

كيف أطيل الجلوس في محفلٍ تُحيطني فيه أنفاسهم الثقيلة تلك. يتهامسون أنه من أمدّها بتلك القوة التي تُجلسها داخل نفسها وحولها كل تلك السيول من الواشين عنها.

أُخفي رعشتي جيدًا وأرفع إليهم عيني بنظرة ثاقبة تبث داخلي ألا ترحلي وفي قلبكِ صرخة لم تخرج منه بعد. ألا تبتاعي في الهوى جنونًا أو تهُمّي بحلمٍ إلا وقد أودعتي النسائم شهادتها على كل تلك الأقذاء التي تبتلعينها يومًا بعد يوم. ألا ترحلي إلا وقد انفكّت براثن أسرهم من حول جيدك. فهم لا يرون إلا بأسًا شديدًا في عينيك وقد نسوا تقدّم كل تلك السنوات التي طُوت منذ عهد ما تناقلوه بينهم من دمك المسفوك في مجالسهم. لن يشعروا أنكِ الآن عالقة في برزخ بين جنة العشق ووهم المادية التي غرقوا في تعظيمها.

وأفسحي براحًا في قلبك لتناقضي كل ما أعلنتيه فإنكِ ما جُبلتِ على حمل الذلات. لن تحملي في رحلتك الثانية سوى نور نقائك حتى يُوصلك إلى أعتاب الجنات.

لو أصغى يوماً المحبوب..

أشعر أنني سأتقيؤك من فرط ما مُلِئت بك!

أوَتعتقد أنني حقًا أضعتك يومًا بين الوجوه لألهث باحثة عنك؟

أنت هم جميعهم، ماذا أطلب من الدنيا وهي متمثلة فيك، وكلك داخلي؟

يكلؤ صوتك جوارحي.. أما عقلي فيحتضرك على الدوام في حديث نُجريه داخل خاطري الثمل بحُبك!

أُمنّي نفسي بك اجتياحًا وراء أفكار طاعنة منذ الأزل وما زالت حتى الآن تتلاعب

بتلابيبك مصرية تلهو بخرطوم المياه وسط مروج خضراء مزهرة.. كعشب ذكراك

شرائط أحلامنا ما زالت قانتة بسحَر ليلي تهز القلب الموجوع

كنجوم سمائك التي تنتظر كل يوم منك رمقة تبسِمُها.

ألا تقذف في حياتي حياةً بأضواء مدينتك؟!

ألا تروي موتتي بحياة تشتهي دفء معطفك؟

ألا يبدو لك أنني واقعة في حب كل شخصية تتقمصها وجهتك؟

فوقعتُ بذلك في حبك مرارًا وتكرارًا دون أن أعي..

حتى رهبة لقائك التي لا أعلم متى يحين ينبوع موردها تُشعرني

أن طائرة حلمي مشرفة على الإقلاع لتتوه بي في غيم سمائك.

منفية بعيدًا جدا

أبعد من الظلمات الكاحلات عن عين المشرق

أبعد من المجرات الغائبات في الأفق

أبعد من حظي عن حجر نرد سعيد

بعيدة عنك بُعد المشرقين

وباكٍ في العزلة قلبي

تُحيك لك أدمعه ثوبًا يُحاكيني

ويقص عليك حكايتي

حكاية اغتراب.

عن نفسي

وعن موطن روحي

يقطن جسدي جوف جبلٍ سحيق

يتغني بحزنه وسط عويل البريه

والحياة ترفض أن تُفسح لي براحًا

أقرأ خلاله رسائل روحي التائهة.

قبسٌ من نور

جلست تُحدّق في الأفق مرتدية جوربها ومعطفها السميكين.

حاضنة نفسها تستمد بعض الدفء، نافخة يديها من حين لآخر كي تُشاهد الدخان المتصاعد من فمها نحو السماء بعد أن يعبر يديها الباردتين بعض الحرارة التي تحفظها من التجمد.

حاولت جاهدة أن تصم أذنيها عن أصوات الباعة القادم من بعيد كي تندمج أكثر مع موسيقى الطبيعة؛ فهي دائمًا ما يُراودها اعتقاد بأنها كلما أنصتت إلى أصوات عباد الله (من غير البشر) كلما كانت أكثر شفافية وأكثر نقاء، وكلما زادت قوة حواسها على تلّقي الرسائل الإلهية التي تجدها في كل شيء حولها شرط ألا يكون قد طالته يد البشر.

نظرت جانبًا فإذا بامرأة عجوز قادمة نحوها مرتدية أسود، ثم توقّفت وأخذت تحدّق فيها وهي واقفة بالقرب من سور حديقتها المُطلة على البحر... فانتابها توجس من تلك المرأة لماذا تطيل النظر إليها، ولماذا أوقفت سيرها هنا؟

حاولت أن تُشعِر نفسها أنه أمر عادي، وأنها ربما جاءت تطلب نقودًا أو حسنة.

ثم تسارعت دقاتها عندما اقتربت منها تلك المرأة تنظر إليها وتتبسم في لطف أقلقها لأنها ظهرت وكأنها تنظر إلى شيء خفي أمام وجهها لا يراه سواها!

فلطمت الفتاة وجه خوفها محاولة إخفاء صوت توجّسها وسألتها بنبرة حادة: "إلامَ تُحدّقين؟"

ردّت عليها تلك المرأة ردًا زاد من حيرتها وقالت لها مباشرةً وكأنها لم تسمع سؤالها الذي نطقته الآن لكنها كانت تستمع حديثها

مع نفسها: "صدقتِ. نحن جميعًا عباد الله وأجمل ما قدمته لنفسكِ أنكِ عوَّدتِها على الإنصات إلى لغاتنا، على اختلافها، وعلى عدم مقدرتك على تفسيرها لفظيًا ولكنكِ تتعاملين معها وكأنها شيء تألفينه لأنكِ فقط صدقتِ في قرارك أن جل منطقنا بين مناجاة وتسبيح، فخذي مني هديتي إليك "لا تسترسلي في دوَّامة العشق فينشغل لسانك عن إكمال وِردك فهو حوض جنتك المورود. ولا تُعجبي بنفسك إذا أنهيته فيحرمك العجب لذة العشق. وحاولي أن تقفي على وسط الأمر بين استغراق في جمال المحبوب ويقين بربوبيته، واجعليه حاضرًا على الدوام بين عيني قلبك في كل وقت سواء إذا نطقتِ اسمه أو إذا صمتت عنه محاولة الإنصات إلى الفراغ، أو إلى تسابيح عشاقه من المخلوقات مستشفة رده. فإذا وجد في قلبك صدقًا وإخباتًا.. شربتِ من كأس السماع بلا انقطاع وغنمتِ كل لحظاتك برشفات تُبرئ عطش روحك إليه وتذيب كل

خلاياك فيه وتخضعها لديموميته مستنشقة ثلج محبته ممتلئة شذراتها بصميم مقربته."

ذابت الفتاة في حلاوة حديث العجوز حتى أغمضت عينيها وصارت تسمعها بقلبها مباشرة فهي لا تريد حجابًا من حواسها يحول بين هذي الكلمات وجدران قلبها..

ثم أفاقت من سُكرها على انقطاع حديثها ففتحت عينيها ولم تجد المرأة أمامها ولم تجد لأقدامها أثرًا إلى المدى.

فأدرات ظهرها إلى دهشتها واستقبلت قبلة ذلك الحديث الذي أسدل لها أجوبة أسئلة قلبها التي لا تنقطع تؤرقها وتهدد مضجعها.

فأجلسها ثقل بقدميها على الكرسي بجوارها فشعرت بخدر جميل يسري من بين أناملها إلى باقي جسدها فأخذت تذكر روحها بوجوب أخذ تلك الهدية على محمل الحب والرضا وأن تملأ منه كل

ممالكنا؛ فأجلسها مع اليمامات الهاربات على أسرة فوق السحب الجاريات؛ وكأن ما أحاطهم من ظلام الليل الدامس لن يقدر على اختراق جدران النور في قلوبهم التي استفاقت على نور المحبة الإلهية وتعاهدت عند هضاب عظمتها ألا يثنيها عنها شيء.

أناشيد الغربة

صباح المساء حالك.. صباح يغضي على عين وجعي.. صباح يمط علكة من جوامد فكري.

أهرول بين الراحلين على بسُط خيباتاهم فلا أجد بينهم عذرًا يُلبّي غرور صمتي.

وقصتي. ما بالها تتفنن في تأصيل ألمي؛ فترمي بوعكي حداثة عهدي إلى نهايته.

أُفتّش في لهيبي عن قرابة ألوذها؛ فإذا بماقتيّ تزوجا من قلب قراباتd.

فمن يتحسسني ليُطبطب اشتعال جرحي

ومن لي في البرية البلهاء حين تقضي على نفسي!

عنيدة دنيانا كأكواب قهوتي. أدفن فيها عمري وتنزوي فيها لذة الخمر. أرتحل إليها عمدًا على قطار تذمري. راقبتُ شمس الصباح

فإذا هي كشمس المغيب. لا تعدني بالعودة. دائمة الترحال مثلي تنزف عند الشفق شقائنا وعلتنا وجبننا. وتمرّد أرواحنا على ضيق كوكبها.

فلاح طيفه الجاني على شقّ قلبي.

طيفه الذي فتّشت عنه في نواميس عهود سلفت

لعلني أجد بين طلاسمها متسعًا لجواره

فأقبض فيه على ذكراه. ثم على تعاريج ذاكرتي التي استوطنها

عند شاطيء الملتقى.

خيمة سمرٍ

تعاهدت عندها ونفسي

ألا أحيا

إلا برؤاك.

ألا ألتفت صدفة

إلا على بريق عينيك.

ألا أصدق إلا لسانك

وحمرة وجنتيك

وشجن بعيد المدى

عابد في مقلتيك

المياه تجري حول الشلال

والسنون تجري.. تبغي الوصال

نسيت المقال

ومر من العمر قهوته

وغرته

ولذته

تتلون صفحات المياه

وتفيض

فيندمل صبري

ويغرق الانتظار

ويكسر المَلل أُولى قواعد ناموسنا

فأتسامر هنالك والأصدقاء

أراهم يمطّون شفاههم في عجب

كأنهم افتتنوا

فتبادلت الأدوار وجوههم

وانعكاس الشمس على الزبد

ثم شردتُ بكُلّي إليك

لو كانوا أنت!

لو أرى ضوء مُحرقي على القمر!

من قال أن الشمس والقمر لا يلتقيان؟!

رأيتك طيبًا هلاميًا

يعبر المآسي نحوي

رأيتك تقطر ماءً من بعيد

يُعزّز الماء من وهجك

فيزداد لهيب مقلتيك

ثم يطيح توهجك بعيني

وقلبي

ووعيي

فيذهب الحلم ضمورًا

مع النسائم

مع الأمواج

ففض شرودي إليك

أسرارًا

كان اسمها كاسمك

كانت السماء تضم صورتك

هل أنا وحدي من ترى في هدوئها الهوج

هل أنا وحدي من تعي حقيقة الموج؟

العمق في الأثر ناداك

ليصحب صدانا إلى آخر الطريق

ويجيب أساي الجميل

فأسأل الرمال عن دموعي

كيف هانت؟

لم أقدر على الوقوف في مرمى الجفاء

كجبلٍ صامد

لا تعرف كيف أُعد الآن في سجلات الأحياء

كيف أكون مصفاة لقساوات الحياة كل يوم

وأجمعها في جبال صمتي

ثم أُجمّلها بإعراضي ومبسمي

فتصنع بركانًا جحيميًا من كثرة كتمي

أخمده جاهدة كل صباح...

بفرشاتي وألوان زينتي

أضع مكياجًا زائفًا على جرحي

لأُغطّي وجه الحقيقة.. وجه خيبتي

ألون وجعي بصمود كاذب

ثم أنطلق مُحمّلة بالأسى

على أرصف العازفين على أوتار الفرح

يحفني من الجانبين أزهار من تناسٍ

وأنَّى لي النسيان

أسير محترقة كجوف بركان يفور

ويبدو من الخارج كقاهر الريح

أسير مخضبة بحلي الجمال

بينما يزفني السحاب إلى شفق الوداع.

إلى عبد الرحمن المازني عن روايته

#جرامافون

لم أكن أقرؤك. بل كنت أقرؤني

وأطارد في صفحاتك عزلة.. لكم سئمتني!

عزلة بطلك لها سبب وجيه. أما عُزلتي فلا أسباب لها. إلا أنه عين التشابه في الركض وراء الحدس والآتي المجهول. فكثر ما دفعت جنوني لاتخاذ قرارات بدلًا عني. فأسرني في حجرة مظلمة تؤج بالنواح والأنين..

وذلك ما دفعني لاقتناء الأسود...

تلك التي كانت ترتدي الملابس المطرزة بالذهبي وتسير بتردد في معرض الكتاب ليست أنا. هذه النسخة التي أظهرها للناس ملونة، مفبركة. أجيد تصنّعها لتُخفي قصتي المُكررة التي لا يود العالم

سماءها كل يوم. فقررتُ حبكها كما يريدون ورسمت على وجه حقيقتي مسارات يعرفها الناس جيدًا وأجهلها أنا. وخبزتُ ابتسامة جميلة المذاق ولو تركت أثرًا موحشًا في نفسي فور اندمالها.

ذلك بيد أنني سئمت التمرّد على أسوَدي وعلى عدسة وهمية تعتلي عيني لتضخم كل فراغ حولي. لماذا جعلتني تلك الرواية أقطر أسى من الداخل كيفما أفجعتني من قبل كوارثي وقصائد عمري المرصوصة نثرًا على وجهي.

فحتى الآن لم تُثرني عزلة قلب غير قلبي إلا تلك الكامنة في خفايا ليل الجرامافون.. جرامافونك يحمل قلبًا كقلبي. لا ينتظر العودة إلى غرفته ليخلو بنفسه ويبثها أثقاله؛ بل هو في قمة عزلته وسط الناس. كروحي المتوحّدة في سرمدية الباقي. وحيدة وسط عالم من الرمال أحوم وسط فضاء كون معتم لا يدع أحدًا ينظر إلى المدى الشاسع فيه بل إلى ما يدعهم ينظرون إليه فقط. لا يرون إلا

وِفق ما يسمح به من خربشات على أسطح جدرانه؛ لأن مكمونه يدور في فوضى رتيبة في أنظارهم لكنها مفعمة بالأسرار الكونية التي يحوم في مداراتها عوالم تضطجع عليها مفاتيح طلاسم الوجود الأزلي..

شرفة الحياة

"صباح الخيبة.

وما لدي من عمر أنفقه على روح السفر.

أبذر عمري في المطارات.

ولا تنبت حقائب على هيئة وطن"

أحلام مستغانمي.

أمر على فصول الحياة كتعاقب تلك الأشجار التي تمر على شرفة القطار.. لا أكاد أراها حتى يبتلعها المدى ثم تختفي فور مرورنا السريع جدًا فلا أكاد أميّز تلك التي وُلدت في هذه اللحظة عن التي ابتلعها المدى توًا..

فماذا عظُم في أنفسنا جرّاء مرور اللائمين على حيواتنا.. إلا كمرور تلك الأشجار على أعيننا.

فحتى لو صنعت من تلك الأشجار غابًا فإنه لا محالة مغادر إلى زوال في غياهب مخيلتي حيث ينام كل شيء نومة أبدية..

كم وددتُ أن أغيب عمّن حولي في تلك الرحلة فيرتاح عاتقي من هَم أن أستيقظ فأجد عيونًا تتقنصني في الظلام محاولة أن تتلصص على أحلامي التي أعوّض بها نقصان واقعي.

كم وددتُ مغادرة هذا الهراء المُطل على شرفة الحياة من فوضى وضوضاء وهتافات الغرباء وضجيج الاحتفالات. أراهم كعارم سيل من قصائد الشعراء الذين قال فيهم الله: "ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون"..

كل شخص يود أن يلوّح بأعتى ما يُميّزه في وجه المتفرجين. كلٌ يودّ تقديم عرضٍ ما على خشبة مسرح الحياة.. ولكنني آثرت المشاهدة الصامتة وكتمتُ كوامني دهرًا وقلتُ لها: كوني وجه الحقيقة المخفية بينهم. فكَوني من أكثر من لُطموا في هذه الحياة؛ جعل الاختفاء حرفتي! إلى أن أستعر الحنين إلى الشكوى فشكوت آثار الدهر إلى ورقي.

فهؤلاء جعلوني كالسبور الأسود الذي لا ينطق إلا بما يمليه الناس عليه. ثم يقومون بمسحه فيكتسب بعضًا من ألوان طباشيرهم.

وظللت على هذه الحال أحقابًا إلى أن أصبحت ألوانهم عالقة فوق أسوَدي. ومنذ تلك الأيام لم أعد بعدها أنا..

وصاروا عاجزين عن إعادة إكسابي لونهم من جديد؛ فقاموا بتركي جميعهم طريحة هذا الاغتراب الذي اصطدمت بمعرفته عندما غادروني. فنظرت إلى مرآتي وحيدة. وكأنني أنظر إليها للمرة الأولى... فكان تلقائيًا أن أعجز عما عجزوا عنه من إزالة الألوان المتراكمة العالقة فوق وجهي وهكذا ظللت طريحة ذهولي وظننتُ لسنوات أن تُعاقب الفصول سيجعل من تلك الألوان جزءًا من حقيقتي..

لكن هذا لم يحدث وما زلتُ ألمح استفهام قلبي وتوجّله من تصادم داخلي بين كل شيء وضده. وبالأخص لو حاولت إجابة تساؤلاتي فأتلعثم لتعود ذكرى طرحي ها هنا إلى قشور ردي. ما زال كل لون يُصارع ليرد على حدي فأظهر كالمسكينة تحاول أن تكتم تفاوت الأفواه العالقة في نفسي.

غبار من الأثير

لم أعد أصاب بالدهشة؛ فهذه الحياة صارت هزلية إلى حدٍ مُخيف. أترقّب كل يوم كارثة جديدة، وقلما يُخفق توقعي..

وهذا ما أوقف مجرى الدهشة نحو قلبي

قلبي القاطن في قاع قبر وارته قرون

وأسلاف إثر ما رمت به من أحداث غير مبالية بما سمعت من صدى ارتطامه بغليون الهاوية.

تلاطمت تلك الأحداث في رأسي تلاطم الأمواج في غرة هيجها وصارعتني في غرفتي المظلمة الخالية إلا مِنّي، ومن محبرتي، وأوراقي، وراسي العالقة هنا منذ فجر الزمان..

الزمان الذي دعاني للتأهب قديمًا كي أُسافر معه. فجرّني معه إلى اللا منتهى.

ولم يستطع عقلي تدارك سرعته فسقط..

ولم يُكلّف الزمان نفسه بالإبطاء من عدوه ليلحق به عقلي الخامد. لهذا لا ألومه حين استوقفني في تلك النقطة الفاصلة بين القرون الماضية والأخرى التي تنتظر خلف ستار العالم ليعلن

استعداده باستقبالها موهم الناس بقدرته على سبر كنهها وتكهنه بما تحمله من سعادة لم نعهدها في أزمنة سلفت..

حمقى هؤلاء الناس. لم لا يدوِّنون خيباتهم؛ علها توقف ترهل الحماقات التي تصدر من عنفوان تصديقهم توقعات النبهاء من المتفائلين كثيرًا. يتفقون على تصديق وهم الأفراح التي تتسلل من بين أقمشة المآتم.. يرون أنوار المآتم بصيص سعادة.

أما عني فرؤية الشيء لا تثبته. لا يتحقق قلبي من شيء إلا لو استرسل معه العقل في إثباته...

حاولتُ وضع يدي في أذني كي أوقف طنين حماقاتهم والتي تسمح للهواء المعبأ بأفكارهم تلك بولوج عقلي..

أو لعل حفيف الأشجار يستفز الأرض التي عبرتها أرواح قبلي فتنطق بحكاياتهم وتُمليها على مؤكد أنها ماتت خنقًا طوال فترة صمتها.. أو لعل شعاع الشمس المنسدل من ثغرات نافذتي يوقظ صوتًا يتململ من الحنين إلى ماضٍ غابر أبَيتُ إلا طَويه ووضعه في كتاب حياتي المركون في صف منسي منزوٍ بين الغبار في مكتبة الوجود الصخمة..

لكن كعادة أشعة الشمس الهادئة لا تنفك عن فضح ذرات الغبار العابثة في غرفتي كأنها تُصدر تصريحًا موثقًا وترميه في وجهي بأن الدنيا كذبة كبيرة صدقها الناس رغم خداعها الجَليّ لهم غير عابئة باكتشاف بعضهم حقيقتها أو يأثر صدماتهم إزاءها. أو كيف ستهز بجرأتها عالمي الصغير الذي راح يتفتت رغمًا عنه وتتناثر أجزاؤه معلنة هزيمتها التامة وانهيار صرح لا مبالاتها بخطوات العابرين خارج غرفتها..

أما هذا السكون الذي يعتريني لم أعد أُسمّيه صمتًا كما كنتُ أرغب. لقد أزاحته شمس جديدة ورمت به فسقط عشوائيًا بين صخور الأمواج العاتية. تمنيتُ لو أدركتها تلك الأمواج فالتهمتها والتهمت كل ذكرى تؤرقني معها. لعلها تخدع ذاكرته باللا وجود كما كانت تخدعني بالصمت.

ما بال القرون تستنشق أحلامنا وتحيا بملذات خيالاتنا وتُرفرف بأجنحة قلوبنا، ثم تزفر أوجاعنا وتُطلقها إلى صدورنا كالسهام العارية. تعلّق بنا فنسقط صرعى وسط برك الدماء العابسة.

فبقدر أهمية الذكرى عندنا؛ نتفنن في محاولة قتلها أو نُخبّئها جيدًا داخل طيات عقولنا وكأننا نريد الاحتفاظ بأكبر قدرٍ ممكن من أوجاعنا. وكأنها ستكون سندنا الوحيد يومًا ما. كيف نطوي السجل على ما أسعدنا يومًا ما ونحرق وراءه نبرات أصواتنا لمجرد أنها لن تعاود الترحال بنا كلما فتحنا أعيننا على يومٍ جديد. ذرة ألم واحدة كفيلة بإخراج كل ما قاسينا من أحزان من مكامنها التي كنا قد دثّرناها جيدًا حفاظًا عليها من النسيان. فتخرج مختلطة بزفرات الألم وإقرارات العتاب الداخلي فيُحاصرها حاضرنا مستحوذًا على طبقات عزفها على حركاتنا وسكناتنا ليعودان معًا يومًا ما إلى مخطوطات ذكريات ذابلة تستثقلها الجدران ولا تستثقلها قلوبنا..

حبيس قلبي

لماذا أحبس الأنفاس داخلي عند مرورك. أتركها وشأنها ترتجف بتجاويف قلبي. لم أخف إلا حينما أدركت لوهلة أنني أجهلك؛ فالإنسان دومًا ما يخاف ما يجهل.

أخاف أن أحكي عنك لمستقبلي وكيف أثريت حاضري بك.. لقد خسر قلبي أمامك رهانه، لكنك لم تزالي متخفية وراء دخان أزلي قامعًا بمحراب البادية. صمتك يستفز أنثاي بان تحنو عليك. إلا أن صمتك مُنعّم بالتراتيل التي تشق غبار الأثير لتغزو كل ذرة تؤمن بك في جسدي..

فينمو حُبي المرصّع بتقلباتك في كل يومٍ ألف مرة فأصير مثلك تفور من عقلي مزاجيتي. ويُهددني الصوت الذي يُخاطبني دومًا متلذذًا بذكرك. بأن الحب قد جاوز حدود عمري واعدًا إياي باللقاء

الأبدي هناك فوق السماء السابعة.. بين ظلال أوراق الشجرة الفضية التي تحفظ بين طياتها عصافير توشي إلى كل يوم عن حالك.

أقامر فيك خوف النعام

على ظلل غمامة حمقاء

على وسادة الأرق الجميل

أُناجي هنالك ما تبقى من آلام

تود لو تعاود اشتياقك

فيأبى الوجد ويستعر

وينأى عنه خلود وجده المشتعل

الناس لا ينتشون كما نحن

بالظلال المتحركة

بالأشباح الفارّة

بالسنين الهلامية

فالأطلال عندي كالعقيق

كلاهما واحد في غربة السفر

لا يلوذ كما ظنوا بالفرار.

يُزمجر كلما مرّ بعزبة الوادي السحيق

ولا يعترف وادينا المقفر

فتودده احتمال.

على أعالي الجبال الساهرة

ترتعش أضواء الأفق

لتخلد في المدى سنيننا

وتترنم برقصات الأعشاب المنسية

لا تتهادى نسائمها سدى

بل لتُراسل الأقدار المنزوية في قلوبنا

ولتحكي أورادنا عن أثرٍ أحبنا

نوستالجيا

أنا أجلس الآن وسط أوراقي منطوية داخل حطامي القديم. استمع إلى هذا العزف الحزين. (مقدمة ياني ونوستالجيا).. أنصت إليه بكُلي؛ إن هذا اللحن مفعم بك.

يالِشرود عالمي إلى لحن يشبه غربتي.. أستند عليه لأهرب منك فأجدك في كل نسمة هواء تُحرّك شجيرات ميلادنا. وإذا تصاعدت على سلم موسيقى قلبي نغمات النسيم؛ أجدك في هوج الرياح. يستجيب لك الموج طائعًا؛ يا لك من متمرد! كيف تقتحم ذلك الشرود ثم أخرج منك متسللة؛ لأنك على بُعد سطرين من بوحي. تفصلنا على الخريطة مسافات ووديان؛ فألتفت فإذا أنت تعبث بسطوري وتلهو بطرائق عقلي، وتتجول بين مذابح قلبي غير مبالٍ وتُحرّك أناملي مع انغام مفعمة باسمك.. فقط إسمك هو الذي

ينصاع إليه حرفي وقلبي وطرفي. انت في أمسي ويومي وغدي إن كنت لك عابرةً لا تتذكر وجهها فأنت لي شمسي؛ أنّي لي أن أستنير إلا من مداد أنوارك؟! أنا بلاك ظل حزين.. أنا ذلك الناي القديم؛ فأضئ بنورك مهجتي يا لحن الأنفاس... تفتحت أزهار انتظاري على ضوء سلسبيلك فلا توصد بوجه أملي الأبواب. دع (ياني) يقص على قلبي مواويل ثَكلي بوجهك الذي يسكنني وحديثك الذي لم تنطقه مطلقًا. دعه يُعزي فيك حياتي طلَلا طَلا. دعه يُوقد على قلبي شموعًا تحمل في حفيف ظلالها الطفيفة نوستالجيا تقطر حزنًا ودمعًا أبيًّا يصب في جوف قلبي ولا تتبلل به عيني مطلقًا. عاهدتني عيني مذ أحبتك أنها ستبقى جافة إزاء ناظرك مهما ناشدت فيها الدمع لتُعزز كبرياءك.

إلى أن رأيت السَكِينة التي تقطن قسماتك جيدًا. وتفحّصت معالمك وكأنني أول من يراها. ورأيتُ الهوى يبتسم لي من وراء شبابيك

عينيك وصافحتني نظرة تهمس في قلبي: "إنني أكثر من يعرفكِ في هذه الحياة وإنني أقرب إلى إدراككِ من عقلك. وإن كل ما يجول في خاطركِ قد مرّ على علمي قبل أن يُداهمكِ."

فانهمرت العَبَرات من عيني شلالًا يفضح شجني القادم من بعيد جدًا. من حيث لم أكن أدري مطلقًا أنه ساكني. أحيانًا يفاجأ الإنسان بنفسه لوهلة عندما يُصادفها على التقاء طريقين ويلمزها بنظرة مستنكرة لأول مرة ويحدث أن يكون أول لقاء بنفسك هذا في أعين شخصٍ استوطنك واحتلّك كلك فلا تجد نفسك إلا مُذعنًا لقلبك الذي أضحى طريح سِكّينه الذي هوى به في منتصف إرادته فقتلها وصار لك بين شباك الردى.

"لا توجد سوى وسيلة واحدة حتى يولد المرء في

حياة جديدة؛ وهي أن يموت قبل الموت."

شمس الدين التبريزي.

سَكَرات الحياة

استيقظت ذات صباحٍ على صوت أنينٍ قادم من شُرفة غرفتي فساورني الخوف؛ لأنه لو نظرت إليه فوجدته مشهدًا مؤلمًا فسيؤذي حتمًا قلبي. وجدتني أشعر بنفس أنين هذا الشيء خارجًا قبل أن أفتح شرفتي لأراه. ففتحتُ شرفتي فإذا بها قطة جريحة تنزف دمًا من رجلها. لم تكن لديّ فكرة عندما رأيت الجرح عما إذا كانت تشاجرت مع قريناتها أم رماها أحد المارة الغاضبين من كل شيء!

أشعرتني رؤية الدم النازف بوخزة في قلبي ولف جسدي دوار، فأمسكت بزجاج الشرفة وتمالكتُ نفسي ثم لبستُ كيسًا بلاستيكيًا بيدي وحملتها إلى الداخل وأخذتُ أُضمّد جراحها وهي تتألم وأنينها يزيد من رعشة يدي. لكنني تخيلتُ رؤيتها سعيدة بعد أن تبرّأ من

وجعها فتوقف قلبي عن الامتعاض واستكملت تطييب جرحها الغائر وخيّطته بعد أن طهّرته جيدًا ولففته حتى يلتئم ثم قدّمت لها طعامًا وشرابًا بعد أن هدأت قليلًا ثم صنعت لها مكانًا دافئًا لتنام فيه مدثرة بفرو من دفء إشفاقي على ألمها وعلى وحدتها وتكالب الهموم على قلبها الحزين.

ذكرني ما حدث لهذه القطة بجملة سمعتها من أحدهم كانت عزائي في الأيام الماضية، كان مضمونها: أن الله -تعالى- لا يهون عليه عبده المؤمن، وأنه يغار على من يحب مِن تعلقه بسواه لذلك يبتليه به ليُعيد النظر في التعلّق بمن دونه وكذلك يبتليه في نفسه رغم أنه لا يحب أن يؤلمه ولكنه أراد بعض ذلك لهم في الدنيا حتى يكونوا أكثر شفقة على خلق الله وحتى ترق قلوبهم لآلام عباده ويكونوا عزاءً لكل متألم أو شريد أو جائع.

ومنذ أن بدأت تلك المقولة في التمثل الحي على واقع حياتي وأنا لا آمن غدرًا من مرض أو بلاء في دار الشقاء هذه.

فقد مرّ عليَّ عامان متتاليان من أشد ما يمر على أحد من ابتلاء وحال عارمةٍ من القبض الإلهي؛ وكأنني جثة هامدة تحت عجلات القطار ولكنني بأعلى درجات الوعي وفي نفس الوقت بأعلى درجات الخفاء.

كلما مر على قطار جاء يدهس جسدي تحته ويُمزّق أحشائي فتستغيث جوارحي وتنتفض وتطلب غوثًا من آلة تحكم الزمان. ولكن مهما ناشدت القطار أن يراني لا يرى. ومهما ناشدت الزمان أن يُنصت فلا يُنصت. ولا يشعر بمرور على أحد. كانت لحظات عدوه على مقبرة جسدي الواعي لكل أفواه الألم التي تقتضمه تحمل مقاساة في نفسي لا تُضاهى فتضغط على الروح الموزّعة في كل أنحاء جسدي لتلفظها خارجًا.. فتقف في حلقي كي تخنقني مُعلّقة إياي

على مشرفة من الموت وإطلالة مؤسفة على الحياة. وأنتظرها أن تخرج وتُنهي ألمي فلا تخرج لتعود أدراجها عندما يبتعد عني القطار تاركة إياي في سُكرٍ يحاكي سكرات الموت. لم أُدرك في سكراتي أي شيء عن كُنه مَن حولي، ولم أسمع سوى صدى همهماتهم تتردد على جسد علتي قائلة: "وحِّدي الله." "وحِّدي الله."

ما الذي يصدر مني جرّاء الألم لا أدري وماذا فعلت كل يقولوا لي هذا؟ تساءلت في جزء من لحيظة عما يُحيط بللورة عالمي المتألم المخفي حتى جاء القطار ثانيةً راكبًا دوامة ألم جديد، كنتُ أتألم لدرجة أطلعني الألم أخيرًا على حال حواسي التي كنتُ أعدها صامدة فإذا بها بين بكاء شديد وصراخ يهز أرجاء كينونة الكائنات والدُنى. كنت أدعو الله مليًّا بأرجاء صراخي أن يدفع هذا الوجع بعيدًا عني إلى حيث لا يُجرّبه أحد.

شعور مؤلم جدًا ألا يجدي الطب نفعًا ولا يلبّي لك المُسَكّن طلبًا.. عادت بي عجلات الوقت بين سَكرتي أدراج أحلامي الطفولية، وأخمدت وجع ثانية مرت خلالها أعوامًا من النقاء وأنا ألهو مع أقراني الصغار برمل البحر على الشاطيء، ونصنع بيتًا رمليًا جميلًا ثم نغضب جدًا ونشعر بإحباط شديد عندما تأتي موجة تأخذ البيت الجميل معها وتهد كل ما بنيناه. ثم نتعاهد أن نبدأ من جديد ولكن نكون أكثر ذكاءً فنبني بيتنا بعيدٍ قليلًا عن الشاطيء بحيث لا يطالنا موجٌ فيكون البيت الجديد هشًا لأن رماله ليست رطبة بما يكفي ليتماسك فينهدم رويدًا من تلقاء نفسه بفعل هشاشته.. ولكننا لم نحزن هذه المرة لأن المرة السابقة عودتنا السقوط. وهكذا فهمنا الدرس جيدًا منذ أن كُنّا صغارًا بأنه لا هرب من مصيدة المصير إذا أراده الله.

عندها عدتُ من سكرتي على ألم لا يُحتمل، وأخذت أصرخ حتى اختفى الصوت من حلقي فشعرتُ أنها لحظة استسلام الجسد الذي كان متشبثًا بالروح كثيرًا فأذعن لرغبتها وتركها وشأنها ليتخلص الاثنان من آلالمهما الشديدة التي تتوعدهما طالما كانا مرتبطين ببعضهما -باسم الحياة الدنيا-.

فشعرتُ فجأة وأنا في قمة نزاعي الموت بالسرير يتحرك من تحتي حتى أصبح فوقي كشافات ضوء شديدة الإضاءة ونساء يرتدون أبيضَ، وجوههم مغطاة فأذهلني الخوف عن ألمي وقلتُ ويلكِ من نفسٍ أهذا يوم الحساب؟! لكن الآلام عاودتني فأيقنت أنني ما زلتُ في الدنيا ولم أشعر إلا وأنا أحاول لفظ الألم من جسدي مرارًا حتى خرج بعسرٍ على هيئة فتاة تصرخ مستنكرة ضيقًا من بعد براح فنسيتُ برؤيتها شقاء دارنا وإذعانها الحرب علينا.

لكن لا بُد وأن تترك أوجاعنا بصماتها على أرواحنا وعلى تلابيب ذاكراتنا كي نستطيع لمس كل وجع نراه في المتألمين حولنا بيد رحمة وشفقة..

فقد صرتُ بعدها أشعر بكل ضربات الأنين التي تُسدد أعيرتها في قلوب الناس وفي أنفسهم فأتوجه إلى الله بالدعاء طالبة ضراعة مناجاته من باب النبي الأوحد الذي لا يرد بإذنه بأن يصرف السوء عن كل من أحبني، وكل من عاداني وألا يُحزن قلبًا، أو يُوجع جسدًا، وألا أسمع إلا الحقيقة، وألا تشتمل تلك الحقيقة على شذرات أنين فيطرق على صندوق ذاكرتي فتوجع بدورها قلبي لأتحد مع المتألم خارجة منه بصحبة ألمه فوق نسمة خفيفة من لطائف إجابة الله لدعاء غريب مضطر..

لنرحل دومًا تاركين في أنفس مَن مررنا بهم شفاءً وسلامًا وابتسامًا...

شهوة الاسترخاء

اعتدتُ على تمشيط جدائل حكمتي كل حين في مخدعي. أُهرول إليه حينما تمتلئ رأسي بتعاسف مشكلات السائرين نحو مصائرهم المجهولة.

هؤلاء الذين تربّت قناعاتهم منذ قديم عهدهم على أن معضلات الحياة على اختلافها يمكنها أن تنتهي فقط بالحديث عنها.

لذلك يخططون علنًا لكل ما يشغل تفكيرهم اليومي. ماذا سنأكل، ماذا سنرتدي، ماذا سنعمل؟ كيف سنظهر أمام جيراننا؟ كيف يرانا الناس، ماذا قالوا عنا؟ متى يتزوج أبناؤنا؟

معتقدين أنهم هكذا سيكون سيرهم إلى مصير معلوم ومحدد طالما قد خططوا له مسبقًا؛ والحقيقة أنهم تبادلوا أطراف حديث يحمل بطياته مخططًا وهميًا ربما لِما يقدم من حياتهم كانت ما كانت ربما لستين سنة قد تطول أو قد تقصر.

جل الناس لا يعلمون أبدًا أنهم حتى لو قاموا بمعرفة كل أقدارهم التي تُحيط عمرهم الباقي فإنه كله لا يتعدى سنوات معدودات.

لا بُد لها وأن تنتهي يومًا ليتم إحالتهم أبديًا لدار القرار.

وهكذا تطن رأسي يوميًا بأحاديث المأكل والملبس ويزيد صداها في نفسي بأن تنزلها منازل دنيا. أي لا تقصد إلا دار الدنيا الفانية؛ وبالأخص إذا جلست خطأً بين أفراد عائلته أو مررت قريبة من المترامين على قارعة الطريق؛ فإذا امتلأ وعاء رأسي من هذل حديثهم أخذتني شهوة الاسترخاء كعادتي نحو موج البحر الهادئ أُعيره حرارة جسدي التي ارتفعت من كل تلك الهموم فيعيرني برد استرخاء يحوم في خلاياي فيبسطها وترتفع إلى عقلي فتفرغه من كل هراء لا يُجدي. أظل في صمت أبثه اضطرابي حتى تستيقظ نسائم الفجر فأجلس على الصخور أشاركها انتظار شمس دفئها لتسطع على قلبي شمس نسيان. تشرق رويدًا لتأمر بانصهار ثلوج تلك الأحاديث المهترئة من رأسي الذي دومًا ما كان يسألني. لماذا الخروج

من عزلتنا إلى الدنيا مثير للغفلة إلى هذا الحد؟ أعلم يقينًا أن هذا صحيح ولكن لا حيلة لنا ما بين حينٍ وحين سيكون هنالك ضرورة ما تدفعنا لهذا.

أحمدك يا ربي بأنك لبّيت ندائي كلما ناديتك أن اللهم... جعلتني كلما تحدّثت مع غيرك ازددت شوقًا إليك أنت فأتيقن ألا مستحقًّا للحنين سواك. فأستصغر نفسي أمام عظيم لطفك. وأتعلم في السجود بين يديك أنه لا يتوجب عليَّ إذلال نفسي إلا لك، وألا أخفض رأسي إلا خنوعًا لعظمتك، وأن الكبرياء رداؤك أنت والعظمة إزارك أنت، وألا أنازعك فيهما ولو داخل نفسي في سر نجواها. وأنك قد كفيتني الناس بك وأرضيتني في كل شيء بدون أن أطلب ذلك منهم. وكلما حدثني حالي بنعمة ألطافك ازددتُ إليك انجذابًا ونفورًا ممن دونك.

فلك الحمد على كل ذاك.

سور البكائين

استيقظتُ ذات مساء على فجيعة موت صلابتي التي طالما كانت متكئًا لترددي الداخلي وحداثة عهد معرفتي بالأشياء، فصرتُ هشة تذروني أخف ريح تمر إزائي؛ حتى صار بنائي يهتز من أقل خبر سيء أسمعه وإن لم يكن له تأثير مباشر عليّ.

فقمتُ أبكي الحائط وحالي يضج بالحنين إلى ربي ويبثّه رهبة تملأ أركانه من كل جانب. إلى أن شعرت المرآة قلبي تنجلي عن حضورٍ لمعية مناجاته في قلبي صار بكائي تنهدًا، وتذكرتُ أنني يومًا سمعت شيخًا يحكي أن سيدتنا وأمنا عائشة حضرت مجلسًا كان فيه من الطعام ما لذ وطاب، وكان حينها رسولنا الكريم قد انتقل عنها إلى الرفيق الأعلى فتذكّرت أنه ما وضع أمامه طعامًا مثله. فعزّ عليها أن تتذوق هذا الطعام ولما يتذوقه حبيبها فقامت تبكي الحائط وتبث إلى ربها شكواها..

"والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولا خلوت إلى قومٍ أحدهم

إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممتُ بشرب الماء من عطش

إلا رأيتُ خيالًا منك في الكأس

ولو قدرت على الإتيان جئتكم

مشيًا على الوجه أو سعيًا على الراس

ويا فتى الحي إن غنّيت لي طربًا

فغنني وآسفًا من قلبك القاسي

ما لي وللناس كم يلحونني سفهًا

ديني لنفسي ودين الناس للناس"

(الحلاج).

فأخذتً أحتضن هواء الغرفة، وأرفع رأسي للسماء مستنشقة عليل طيبِها وأغمضتُ عيني رافعةً يدي إلى السماء وأخذتُ أدور حول نفسي وأستقبل كل ما يُرسِل إليّ ربي من رحمات، وأحف محيط روحي بها إلى أن أمتلئ بها حد الشهيق المعطر ثم أُنزل يدًا محاولة أن أوزّع كل ما أستقبله من رحماتٍ على كل مخلوقات الله..

فلتفرغِ يا ربي في كل خلوة ما صاحبني من ظلمات يأسي وأفرغ برحمتك ما بجعبة فؤادي من أصداء الهراءات تتناثر كقصاص

الورق. ولتخبت لاسمك قلبي. فإنه ما بات يفقه كثيرًا ما يدور في خلد الزمان وما وارى بين طياته من نجوى. فليس بين وبين من سواك من سر يا عالم السر وأخفى.. ما سواك من أحدٍ في محاجر كهفي ولا يُسمع في مقالع أشجار تبددي في الهوى إلا همسًا. أطل في مناجاتك سهري و"ألهمني لذكرك طول عمرٍ" لأفرغ في اشتياقكم مجاري عبراتي يا شديد المَحال، ورب الجمال غاية مطلبي فيك التئام الوصال، وطرف من حلو حديثكم يخيط جرح النوى يا جل حلمي، يا مطلع السفر.

المؤلفة

بكالوريوس صيدلة جامعة سيناء ٢٠٢١

عضوة في الكثير من النوادي الأدبية

والأمسيات الشعرية. لها مؤلفات روائية لم تظهر للنور بعد.

وهذا أول مؤلفاتها التي تُنشر.

هذا الكتاب هو مجموعة قصصية وخواطر ممزوجة بأناشيد غربة نفس. فهو يغترف من حال القبض اغترافًا ويتلوى حينًا في جنبات العشق البشري الفاني. وحينًا يفطن إلى أبدية الروح التي لا بُد وأن تُسافر في رحلة معرفتها بالبقاء والفناء في حضرة الذات العليا لتسمو بها في حظيرة قدس الملكوت الأعلى والأنس الأسمى.

مزاج الكتب
للنشر والتوزيع

ج.م.ع

الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339